المحاضرة السادسة: المدرسة العربية

1. الأدب المقارن في التراث العربي

كانت إرهاصات المقارنة الأولى في الأدب العربي جزئية، وتستند إلى الانطباع والذوق الجمالي في العصر الجاهلي، ليظهر مع العصر الأموي والعباسي مصطلح "الفحل"، الذي يحمل فكرة المقارنة بين مجموعتين، ليتطور هذا المصطلح فيما بعد إلى فكرة "الطبقات"، ونظرا لصعوبة هذه الأخيرة أدت إلى ظهور فكرة "الموازنة" مثل: الموازنة بين أبي تمام والبحتري، والتي تلم بالمعاني والألفاظ والموضوعات...إلا أن الموازنة لا تخرج عن اللغة الواحدة، بينما الدراسة في الأدب المقارن تتعدى ذلك إلى لغات مختلفة وآداب مختلفة.

ومع بداية الترجمة تم نقل الكثير من العلوم والآداب عن الشرق والغرب لاسيما الفرس والهند واليونان وها هو الجاحظ يورد في كتابه "البيان والتبين" عن بلاغة الفرس والهند والروم واليونان، وأشار إلى بعض الخصائص المشتركة بينها وبين بلاغة العرب، كما قارن بين الشعر الفارسي والشعر الإغريقي والشعر العربي فوجدها تختلف في الإيقاع والقافية، إلا أن هذه المقارنات كانت مبنية على أفكار ذاتية لا موضوعية، تفتقد إلى منهج علمي.

2. التعريف بالمدرسة العربية

إن اهتمام العرب بالأدب المقارن تأخر كثيرا وظهرت تباشيره مع القرن العشرين، حيث لم يتمكن العرب من تأسيس مدرسة كغيرهم لعدة أسباب أهمها:

أ. طبيعة الجامعات العربية حال الدرس الأدبي فيها.
ب. بعض الإشكالات الثقافية والاجتماعية.
ت. تبعية المدرسة العربية للمدرسة الفرنسية.

ظهرت كلمة مقارنة بوضوح في مجال الدراسات الأدبية، في مدرسة دار العلوم، وجدول في عام 1924م دراسة مادة جديدة هي "اللغة العبرية واللغة السريانية ومقارنتها باللغة العربية". حيث وجدت مجموعة من المحاولات تنم عن اهتمام الأدباء والنقاد والدارسين بهذا الفرع الجديد من فروع الدراسة الأدبية وإن لم يتوفر لأصحاب هذه المحاولة المعرفة المتخصصة والمنهج العلمي.

3. تعريف الأدب المقارن

بعد أن رأى غنيمي هلال أنه كثر الخطأ في تحديد مفهوم الأدب المقارن، أراد أن يحدد مفهومه انطلاقا من مجموعة من العناصر يقول:" إنه يدرس مواطن التلاقي بين الآداب في لغاتها المختلفة، وصلاتها الكثيرة والمعقدة في حاضرها وفي ماضيها، وما لهذه الصلات التاريخية من تأثير وتأثر، أيا كانت مظاهر ذلك التأثير والتأثر، سواء اتصل بالأصول الفنية أو طبيعة الموضوعات، أو كانت خاصة بصور البلاد المختلفة كما تنعكس في آداب الأمم الأخرى".

4. مراحل الأدب المقارن في الأدب العربي الحديث ورواده

تم حصر الأدب المقارن في أربعة مراحل:

أ. **مرحلة البدايات: من عصر النهضة إلى 1948م**

يمكن اعتبار رواد النهضة العربية هم أصحاب البدايات الأولى للأدب المقارن في العالم العربي، حيث لم يتخصص أصحابها في الأدب المقارن، إنما لهم معارف عامة بالآداب الأجنبية، مما ترتب عليها توظيف العموميات دون الخصوصيات، فركزوا على مقارنة بعض مظاهر الثقافة العربية بالثقافة الغربية، ودراسة التشابه والاختلاف بين الأدب العربي والآداب الغربية الحديثة، دون التطرق إلى دراسة التأثير والتأثر، رغبة في تعريف القارئ العربي بآداب الغرب التي بلغت مرحلة متقدمة من التطور في حين عرف الأدب العربي مرحلة من الانحطاط منهم: رفاعة الطهطاوي، علي مبارك، أديب إسحاق، أحمد فارس الشدياق، يعقوب صروف...وغيرهم.

أ. **رفاعة الطهطاوي**

الذي يمكن اعتباره أول من تطرق إلى البحث المقارن بين الثقافات الشرقية والغربية بعد عودته من بعثته إلى فرنسا 1831م، فألف كتابه "تخليص الإبريز في تلخيص أخبار باريز" وهي مقارن سطحية، حيث وصف الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية في فرنسا، بغية إفادة قومه بهذه العلوم والمعارف.

بعد أن ازدهرت حركة الترجمة والاقتباس في أوائل القرن العشرين والانفتاح على الغرب، زاد اهتمام الدارسين العرب بالمقارنة فأول من تناول ظاهرة التأثير والتأثر إلى جانب التشابه والتوازي بين عدد من النماذج الأدبية المختلفة.

ب. **روحي الخالدي**

"تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفكتور هوكو" لعل هذا الكتاب أول محاولة في العربية تتضمن ملاحظات ذات شأن تتصل بمجالات البحث في الأدب المقارن، هو أول من تطرق إلى ظاهرة التأثير والتأثر إلى جانب فكرة التوازي، على الرغم من أن محور الاهتمام الأول في الكتاب هو حياة فيكتور هوجو وأدبه فإنه تطرق إلى مجموعة من القضايا: الأدب والنقد عند العرب والأوروبيين كما تعرض لمجموعة من المقارنات الأدبية بين بعض الظواهر والقضايا الأدبية التي أصبحت فيما بعد محور اهتمام المقارنين العرب.

ت. **سليمان البستاني**

ومقدمة ترجمته للإلياذة التي استغرقت مائتي صفحة والتي اشتملت على مجموعة من الآراء في مجال المقارنات الأدبية كحديثه عن ترجمات الإلياذة إلى اللغات القديمة والحديثة ومقارنته لطبيعة الموسيقى الشعرية عند العرب وباقي الأمم كالسريان والفرس والترك...وغيرهم، وتفريقه بين السرقة والتأثر.

ث. **فخري أبو السعود**

حيث يعد الرائد الأول لمصطلح الأدب المقارن في الأدب العربي، وهي ترجمة حرفية عن المصطلح الفرنسي، فنشر سلسة من المقالات في مجلة الرسالة سنة 1936م، حيث كان لها أثر ملموس في شيوع الاهتمام بظاهرة المقارنة بين الأدب العربي والآداب الأخرى، معظم مقارناته تبدأ

وتنتهي بتأكيد اختلاف الأديبين في الظاهرة المدروسة فمثلا حين قارن بين المتنبي وشكسبير ينتهي إلى اختلافهما في كل شيء.

تميزت هذه المرحلة بغلبة الجانب التطبيقي ولم تتم مناقشة نظريات الغربيين، ولم يتم التطرق إلى مصطلح الأدب المقارن، وإلى افتقار هذه القراءات إلى المشروع الثقافي المتسم بوضوح الرؤية وتحديد الأهداف والمقاصد، حيث توزعت هذه المحاولات بين جهود فردية متباعدة أو متزامنة، بقيت معظم هذه المحاولات متوقفة عند حدود الموازنة أو المقارنة بين الواقع الثقافي العربي وبين منجز الغرب وتقدمه، بطريقة سطحية افتقرت إلى النظر المتأمل في مقومات نهضة الآخر.

ج. مرحلة التأسيس 1948م إلى 1960م

بعد أن أعلن قرار تأسيس مادة الأدب المقارن في جامعة القاهرة سنة 1945م ظهرت مجموعة من الكتب التعليمية إلا أنها كانت دراسات سطحية منها:

1. "الأدب المقارن" لعبد الرزاق حميدة

الكتاب عبارة عن مجموعة من الأبحاث التطبيقية والنظرية، إلا أن بعض هذه الأبحاث مجرد موازنات بين نصوص أو ظواهر في الأدب العربي مثل حديثه عن المتنبي وحمدونة فالنصان ينتميان إلى أدب واحد وليس إلى أدبين مختلفين. كما أنه قارن بين رسالة الغفران لأبي العلاء المعري والكوميديا الإلهية لدانتي.

2. "تيارات بين الشرق والغرب" إبراهيم سلامة

كانت دراسة إبراهيم سلامة من الناحية التاريخية آخر محاولة تمت في مجال الدراسة المقارنة قبل أن تظهر دراسات ممنهجة. اتجه هذا الكتاب إلى وضع أساس نظري للأدب المقارن يحدد فيه مفهوم هذا العلم ومناهج البحث فيه، وإن كان لم يصل إلى تحديد مفهوم دقيق للدراسة المقارنة، إفادته ببعض الأفكار الجزئية من كتاب "الأدب المقارن" لبول فان يتيجم.

إلى أن تطور التأليف في الأدب العربي المقارن في سنوات الخمسينيات على يد جماعة من الباحثين العرب الذين درسوا في الجامعات الغربية فظهرت كتب في ميدان المقارنة الأدبية بفضل ترجمات عدة أعمال من الآداب الغربية إلى العربية منها:

3. "الأدب المقارن" محمد غنيمي هلال 1953م

يعد الرائد المنهجي للأدب المقارن عند العرب، ظل كتابه نموذجا لكثير من المراحل اللاحقة. فكتابه نموذج فريد في تهجير الأفكار الغربية نحو الشرق إذ يظهر على أن غنيمي هلال لم يطور فيها شيئا بل استمر على اجترار الدرس المقارن وما ورد حرفيا في كتب فان تيجم، جويار...وغيرهم.

حدد غنيمي هلال بدقة الأسس العلمية لنظرية الأدب المقارن والتي تقوم على ثلاث شروط كما تبلورت على يد المدرسة الفرنسية وهي:

1. التلاقي بين الآداب تأثيرا وتأثرا

2. في ظرف صلات تاريخية معينة
3. اختلاف اللغة.

فعد هذا الكتاب أساسا اعتمد عليه كل من جاء بعده، لأنه اشتمل على مجموعة من التطبيقات التي دارت حول علاقة الأدب العربي بالآداب العالمية الشرقية والغربية.

ح. مرحلة الترويج 1960م إلى 1970م

في هذه المرحلة ظهرت مجلتين متخصصتين في الأدب المقارن:

1. **الدراسات الأدبية 1962م -1967م**

حيث كانت موضوعاتها تنصب على الدراسات المقارنة بين الفارسية والعربية متبعة المدرسة الفرنسية. يترأسها محمد محمدي نظرا لازدهار الأدبين العربي والفارسي فكان الاهتمام بالدراسات المقارنة بين اللغتين ضروريا، معتمدا على تاريخية العلاقات ومبدأ الأسباب والمسببات بين أدبين أثبتا تداخلهما على مستويات متعددة. حيث غلب عليها طابع التطبيقات فكانت عروضها تدور حول: عنتر وبيرس عشيقين خائنين، الجاحظ والأدب المقارن، قضية المصادر الإسلامية في الكوميديا الإلهية....

2. **الدفاتر الجزائرية للأدب المقارن 1967م -1968م**

باللغة الفرنسية يديرها جمال بن شيخ ركزت على ثنائيات الأدب العربي والفرنسي.

خ. مرحلة عقد الرشد 1970م-الآن

وهي أخصب مرحلة تدل على التنوع والاهتمام الجدي تتسم بـ:

أ. الالتفات إلى مبادئ المدرسة الأمريكية
ب. زيادة الاهتمام بالدراسات المقارنة بين العربية والفارسية على خلاف خجل الدراسات (العربية - التركية) و(العربية-العبرية) حيث انحصرت الموضوعات في قصة المعراج، المجنون، المقامات، قصص الحيوان، الشاهنمات.
ت. اهتمام الدارسين بالمناهج النقدية الحديثة وتطبيقها على الرواية.
ث. ازدياد التوجه نحو الدراسات الغربية أمثال: حسام الخطيب، سعيد علوش، ريمون طحان، عز الدين مناصرة، عطية عامر.

5.مآخذ المدرسة العربية

1. لم تستطع هذه المدرسة الاستقلال بذاتها بل انبهرت بالمدرسة الفرنسية وراحت تروج لها.
2. انقطاع أبحاث المقارنين العرب عن تواصلها أو تجاهل المعاصرين الواحد للآخر الشيء الذي جعل من الدرس المقارن في العالم العربي عند نقطة البدء والانطلاق.